الباب الثاني والخمسون

في آداب الشيخ وما يعتمده مع الأصحاب والتلاميذ

أهم الآداب : أن لا يتعرّض الصادق المتقدم على القوم ، ولا يتعرض لاستجلاب بواطنهم بلطف الرفق وحسن الكلام محبة للاستتباع ؛ فإذا رأى أن الله تعالى يبعث إليه المريدين والمسترشدين بحسن الظن وصدق الإرادة ، يحذر أن يكون ذلك ابتلاءً وامتحانًا من الله تعالى .

والنفوس مجبولة على محبة إقبال الخلق ، والشهرة ، وفي الخمول السلامة .

فإذا بلغ الكتاب أجله ، وتمكّن العبد من حاله ، وعَلم - بتعريف الله إيّاه - أنه مُرادٌ بالإشارة والتعليم للمريدين ، فيكلمهم حينئذ كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه .

وكل مريد ومسترشد - ساقه الله تعالى إليه - يراجع الله تعالى في معناه[1] ، ويكثر اللجأ إليه أن يتولاه فيه ، وفي القول معه .

ولا يتكلم مع المريد بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله ، مستعين به في الهداية للصواب من القول .

سمعت شيخنا أبا النجيب السهروردي - رحمه الله - يوصي بعض أصحابه ويقول : لا تكلّم أحدًا من الفقراء إلا في أصفى أوقاتك .

وهذه وصية نافعة ؛ لأن الكلمة تقع في سمع المريد كالحبة تقع في الأرض .

وقد ذكرنا أن الحبة الفاسدة تَهلك وتَضيع ، وفساد حبة الكلام بالهوى ، وقطرة من الهوى تُكدِّر بحرًا من العلم ؛ فعند الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغي أن يستمد القلبُ من الله تعالى كم يستمد اللسان من الجنان .

وكما أن اللسان ترجمان القلب يكون قلبه ترجمان الحقّ عند العبد ، فيكون ناظرًا إلى الله ، مصغيًا إليه متلقيًا ما يرد عليه ، مؤديًا للأمانة فيه .

---

(١) أي في داخله وأعماقه وباطنه .

ثم ينبغى للشيخ أن يعتبر حال المريد ، ويتفرّس فيه بنور الإيمان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحيته واستعداده ؛ فمن المريدين من يصلح للتعبّد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار .

ومن المريدين من يكون مستعدًا صالحًا للقرب وسلوك طريق المقرّبين المرادين بمعاملة القلوب والمعاملات السنية .

ولكل من الأبرار والمقرّبين مبادٍ ونهايات . فيكون الشيخ صاحب الإشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له .

والعجب أن الصحراوىَ يعلم الأراضى والغروس ويعلم كل غرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعلم قطنها وما يتأتّى منه من الغزل ودقته وغلظه ، ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له ؟!

وكان رسول الله ﷺ يكلّم الناس عل قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح له ؛ فمنهم من كان يأمره بالإنفاق ، ومنهم من أمره بالإمساك ، ومنهم من أمره بالكسب ، ومنهم من قرره على ترك الكسب كأصحاب الصُفّة ، فكان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس ، وما يصلح لكل واحد ، فأمّا فى رتبة الدعوة فقد كان يُعمم الدعوة ؛ لأنه مبعوث لإثبات الحجة ، وإيضاح المحجة ، يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرّس فيه الهداية دون غيره .

ومن أدب الشيخ : أن يكون له خلوة خاصة ، ووقت خاص لا يسعه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ، ولا تدّعى نفسه قوّة ، ظنًا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه ، وأنه غير محتاج إلى الخلوة ، فإن رسول الله ﷺ مع كمال حاله كان له قيام الليل ، وصلوات يصلّيها ، ويدوم عليها ، وأوقات يخلو فيها .

فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة ، قلّ ذلك أو كثر ، لطُف ذلك أو كثف .

وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله ، واغترّ بطيبة قلبه ، واسترسل فى المازجة والمخالطة ، وجعل نفسه مناخًا للبطّالين بلقمة تُؤكل عنده ؛ وبرفق يوجد منه ، فيقصده مَن ليس قصدُه الدين ، ولا بُغيتُه سلوكَ طريق المتقين . فافتتن وأفْتَن ، وبقى فى خطة القصور ووقع فى دائرة الفتور ، فما يستغنى الشيخ عن الاستمداد

من الله تعالى والتضرع بين يدى الله بقلبه إن لم يكن بقالبه وقلبه ، فيكون له فى كل كلمة إلى الله الرجوع ، وفى كل حركة بين يدى الله خضوع .

وإنما دخلت الفتنة على المغرورين المدّعين للقوة والاسترسال فى الكلام والمخالطة ؛ لقلّة معرفتهم صفات النفس ، واغترارهم بيسير من الموهبة ، وقلّة تأدّبهم بالشيوخ .

كان الجنيد - رحمه الله - يقول لأصحابه : لو علمت أن صلاة ركعتين لى أفضل من جلوسى معكم ما جلست عندكم .

فإذا رأى الفضل فى الخلوة يخلو، وإذا رأى الفضل فى الجلوة يجلس مع الأصحاب ، فتكون جلوته فى حماية خلوته ، وجلوته مزيدًا لخلوته ، وفى هذا سرّ، وذلك : أن الآدميّ ذو تركيب مختلف ، فيه تضادّ وتغاير - على ما أسلفنا - من كونه مترددًا بين السفليّ والعلوى ، ولما فيه من التغاير له حظّ من الفتور عن الصبر على صرف الحق ، ولهذا كان لكل عامل فترة ، والفترة قد تكون تارة فى صورة العمل ، وتارة فى عدم الروح فى العمل ، وإن لم تكن فى صورة العمل ، ففى وقت الفترة للمريدين والسالكين تصييع واستراوح للنفس ، وركون إلى البطالة .

فمن بلغ رتبة المشيخة انصرف قسمُ فترته إلى الخلق ، فأفلح الخلق بقسم فترته ، وما ضاع قسم فترته كضياعه فى حق المريدين ؛ فالمريد يعود من الفترة بقوة الشدّة ، وحدّة الطلب إلى الإقبال على الله .

والشيخ يكتسب الفضيلة من نفع الخلق بقسم فترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرئبة ، أكثر من عود الفقير بحدّة إرادته من فترته ، فيعود من الخلق إلى الخلوة منتزع الفتور، بقلب متعطش وافر النور ، وروح متخلصة عن مضيق مطالعة الأغيار، قادمة بحدّة شغفها إلى دار القرار .

ومن وظيفة الشيخ : حُسن خُلقه مع أهل الإرادة والطلب ، والنزول من حقه فيما يجب من التبجيل والتعظيم للمشايخ ، واستعماله التواضع .

حكى الرقىُّ قال: كنت بمصر، وكنا فى المسجد جماعة من الفقراء جلوسًا، فدخل الزقاق، فقام عند اسطوانة يركع، فقلنا يفرغ الشيخ من صلاته ونقوم نسلم عليه، فلما فرغ جاء إلينا وسلّم علينا ، فقلنا : نحن كنا أولى بهذا من الشيخ . فقال : ما عذّب الله قلبى بهذا قط ، يعنى : ما تقيدتُ بأن أحترم وأقصد .

ومن آداب الشيوخ : النزول إلى حال المريدين من الرفق بهم وبسطهم ؛ قال بعضهم : إذا رأيت الفقير فألقه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإن الرفق يؤنسه والعلم يوحشه .

فإذا فعل الشيخ هذا المعنى من الرفق يتدَّرج المريد ببركة ذلك إلى الانتفاع بالعلم فيعامل حينئذ بصريح العلم .

ومن آداب الشيوخ : التعطف على الأصحاب وقضاء حقوقهم فى الصحة والمرض . ولا يترك حقوقهم اعتمادًا على إرادتهم وصدقهم ، وقال بعضهم : لا تضيع حقَّ أخيك بما بينك وبينه من المودة .

وحكى عن الجريرى قال : وافيت من الحج ، فابتدأت بالجنيد ، وسلّمت عليه وقلت : حتى لا يتعنَّى[1] ثم أتيتُ منزلى فلما صليت الغداة التفتُّ وإذا بالجنيد خلفى ، فقلت: يا سيدى إنما ابتدأت بالسلام عليك، لكيلا تتعنَّى إلى هاهنا . فقال لى: يا أبا محمد، هذا حقّك وذاك فضلك .

ومن آداب الشيوخ : أنهم إذا علموا من بعض المسترشدين ضعفًا فى مراغمة النفس وقهرها واعتماد صدق العزيمة : أن يرفقوا به ، ويوقفوه على حدّ الرخصة ، ففى ذلك خير كثير .

وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حرّ ، ثم إذا ثبت وخالط الفقراء ، وتَدرّب فى لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزيمة .

قال أبو سعيد بن الأعرابى : كان شاب يعرف بـ (إبراهيم الصائغ) وكان لأبيه نعمةٌ ، فانقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلانسى ، فربما كان يقع بيد أبى أحمد شىء من الدراهم فكان يشترى له الرقاق والشواء والحواء ويؤثره عليه ويقول: هذا خرج من الدنيا وقد تعوّد النعمة ، فيجب أن نرفق به ، ونؤثره على غيره .

ومن آداب الشيوخ : التنزّه عن مال المريد ، وخدمته ، والارتفاق من جانبه بوجه من الوجوه ؛ لأنه جاء لله تعالى ، فيجعل نفعه وإرشاده خالصًا لوجه الله تعالى ، فما يُسدِى الشيخُ للمريد من أفضل الصدقات .

وقد ورد (ما تصدّق متصدق بصدقة أفضل من علم يبثّه فى الناس) .

---

(١) التعنّى : التعب والمشقة .

وقد قال الله تعالى : تنبيهًا على خلوصى ما لله وحراسته من الشوائب ﴿إِنَّمَا نُطْعِمكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُم جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا﴾[1] .

فلا ينبغى للشيخ أن يطلب على صدقته جزاءً ، إلاّ أن يظهر له فى شىء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الرفق منه ، أو صلاح يتراءى للشيخ فى حق المريد بذلك ، فيكون التلبُّس بماله والارتفاق بخدمته لمصلحة تعود على المريد ، مأمونة الغائلة من جانب الشيخ ، قال الله تعالى : ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلكُمْ أموالكم إِنْ يَسْأَلكُمُوهَا فَيُحفِكُمْ تَبْخَلو وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾[2] . ومعنى يحفكم : أى يجهدكم ويلح عليكم .

قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضغان . وهذا تأديب من الله الكريم . والأدب أدب الله .

قال جعفر الخلدى : جاء رجل إلى الجنيد ، وأراد أن يخرج عن ماله كله ، ويجلس معهم على الفقر، فقال له الجنيد: لا تخرج من مالك كله، احبس منه مقدار ما يكفيك ، وأخرج الفضل، وتفوّت بما حبست، واجتهد فى طلب الحلال، لا تخرج كلّ ما عندك ، فلست آمنُ عليك أن تطالبك نفسك .

وكان النبى أفضل الصلاة والسلام عليه إذا أراد أن يعمل عملاً تثبَّت ، وقد يكون الشيخ يعلم من حال المريد أنه إذا خرج من الشىء يكسبه من الحال ما لا يتطلّع به إلى المال ، فحينئذٍ يجوز له أن يفسح للمريد فى الخروج من المال ، كما فسح رسول الله ﷺ لأبى بكر وقبل منه جميع ماله .

ومن آداب الشيوخ : إذا رأى من بعض المريدين مكروهًا ، أو علم من حاله اعوجاجًا ، أو أحَسَّ منه بدعوى ، أو رأى أنه داخله عُجب : أن لا يُصرِّح له بالمكروه ، بل يتكلّم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذى يعلم ، ويكشف عن وجه المذمّة مجملاً ، فتحصل بذلك الفائدة للكلّ ، فهذا أقرب إلى المداراة ، وأكثر أثرًا لتألف القلوب .

وإذا رأى من المريد تقصيرًا فى خدمة ندبه إليها : يحمل تقصيره ، ويعفو عنه ، ويحرّضه على الخدمة بالرفق واللين .

---

(١) آية رقم ٩ من سورة الإنسان .

(٢) آية رقم ٣٧ من سورة محمد .

وإلى ذلك ندب رسول الله ﷺ ، فيما أخبرنا به ضياء الدين عبد الوهاب بن على قال: أخبرنا أبو افتح الكرخى قراءةً قال: أخبرنا أبو نصر التريـاقى قـال : أخبرنـا أبـو محمـد الجرحى، قال: أخبرنا أبوالعباس المحبوبـى قـال: أخبرنـا أبـو عيسـى الـترمذى قـال : حدثنـا قتيبـة ، قـال : حدثنـا راشـد بـن سـعد، عـن أبـى هـلال الخولانـى ، عـن ابن عباس بن جليد الحجرى ، عـن عبـد الله بـن عمـر قـال : جـاء رجـل إلى النبـى ﷺ فقال : يا رسول الله ، كم أعفو عن الخادم ؟ قال : (كل يوم سبعين مرة)[1] .

وأخلاق المشايخ مهذّبة بحسن الاقتداء برسول الله ﷺ ، وهم أحق الناس بإحياء سـنّته فى كل ما أمر وندب وأنكر وأوجب .

ومن جملة مهام الآداب : حفظ أسرار المريدين فيما يكاشـفون بـه ويمنحـون مـن أنـواع المنح . فسر المريد لا يتعدى ربَّه وشيخه .

ثم لا يحقر الشيخ فى نفس المريد ما يجده فى خلوتـه مـن كشـف أو سمـاع خطـاب ، أو شىء من خوارق العادات ، ويعرّفه أن الوقوف مع شىء من هذا يشـغل عن الله ويسـدّ باب المزيد ، بل يعرّفه أنّ هذه نعمة تُشكر ، ومن ورائها نعم لا تُحصى ، ويعرفه أن شأن المريد طلبُ المنعم لا النعمة ، حتى يبقى سرّه محفوظًا عن نفسه وعند شيخه .

ولا يذيع سرّه ، فإذاعة الأسرار من ضيق الصدر ، وضيق الصدر الموجـب لإذاعـة السرِّ يُوصف به النسوان وضُعفاء العقول من الرجال .

وسبب إذاعة السرِّ أن للإنسان قوتين : آخذة ، ومعطية ، وكلتاهما تتشوّف إلى الفعـل المختص بها ، ولولا أن الله سبحانه وتعـالى وَكَـل المعطيـة بإظـهار مـا عندهـا مـا ظـهرت الأسرار ؛ فكامل العقل كلما طلبت القوةُ الفعلَ قَيَّدها ، ووزنها بـالعقل حتـى يضعـها فـى مواضعها ، فَيجلُّ حال الشيوخ عن إذاعة الأسرار لرزانة عقولهم .

وينبغى للمريـد أن يحفـظ سرَّه مـن بثِّـه ؛ ففـى ذلـك صحتـه وسـلامته ، وتـأييد الله سبحانه وتعالى له بتدارك المريدين الصادقين فى موردهم ومصدرهم .

---

(١) رواه الطبرانى .